

عبد الحكيم شباط | Abdul-Hakim Shubat *

مراجعة كتاب: نقد الحرية: مدخلٌ إلى فلسفة إمانويل ليفيناس لرشييد بوطيب

Book review:

The Critique of Freedom: An Introduction to the Philosophy of Emmanuel Levinas
by Rachid Boutayeb

عنوان الكتاب:	نقد الحرية: مدخلٌ إلى فلسفة إمانويل ليفيناس.
المؤلف:	رشييد بوطيب.
تقديم:	أكسيل هونيث.
الناشر:	بيروت: منشورات ضفاف؛ الجزائر: منشورات الاختلاف.
سنة النشر:	2018.
عدد الصفحات:	160 صفحة.

* باحث سوري، حاصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة هومبولت في برلين، متخصص في الفلسفة المعاصرة.

A Syrian researcher, he holds a PhD in philosophy from the Humboldt University in Berlin, specializing in the contemporary philosophy.

اليهودية من الطابع الأسطوري والصوفي، تمهيداً لمصالحتها مع زمن العالم، وبين فهم ليفيناس «العلاقة الإتيقية»، بوصفها تسبق كل حضور أو حرية داخل الذات؛ ف«الذات الإتيقية لا تتحقق بدءاً إلا ما وراء الحرية، إن لم يكن ضدها» (ص 18)، ليلتقي كلٌّ منهما بالآخر حول ما يسمى «إتيقا الضعف» التي ستصبح «سمة الأخلاق الموضوعية». وكذلك يرصد بوطيب الأثر البالغ الذي تركه نقد روزنتسفايغ «الكلية» في فلسفة ليفيناس، وأي دور كان لكتابه نجمة الخلاص في تصور ليفيناس «الراديكالي للحرب» بوصفها حقيقة النظام السياسي، وأن السلام لا يكون إلا خارج هذه الحقيقة، كاستثناء أو «حالة طارئة» فحسب، حيث يغدو «وجه الآخر» شكلاً من أشكال ما يسميه «المقاومة الإتيقية». ويمثل مثل هذا الفهم احتجاجاً على الروح الكلية المستبدة بالفلسفة الهيغلية التي سوغت الحرب وقهر الآخر وإخضاعه. ومع مارتن بوبر، سيلتقي ليفيناس في التمييز بين التفلسف «الكلياني» بوصفه تملكاً وسيطرة، و«التفلسف المنفتح» على الآخر، بوصفه تفاعلاً متبادلاً معه. ولا شك في أن غاية مثل هذه الأطروحات إنما كانت، في الدرجة الأولى، مقاومة عداء السامية المستعمر حينها في جو ثقافي ألماني محتقن. إذًا، اتفقت نيّاتهم وتنوّعت أساليبهم على أن تلك المحاولات لم تقصد عزل اليهودية كالجذيرة وسط المحيط، بقدر ما أرادت تأكيد خصوصيتها الثقافية من غير انغلاق على الذات، فهم قدموا أنفسهم بوصفهم أبناء للثقافة الألمانية والأوروبية بامتياز. ويطلق بوطيب مصطلح «الإتيقا المضادة»، على مشروع ليفيناس؛ لأنه يرى فيه تمرّدًا على الفهم التقليدي للأخلاق وعلى معاييرها، ويكتفي بالبحث عن معناها من دون السعي لاختزالها في بابٍ محدد،

يتكون كتاب نقد الحرية: مدخلٌ إلى فلسفة إمانويل ليفيناس من أربعة فصول وتقديم وتمهيد وتأمّلات ختامية. في تقديمه هذا العمل، يعرف الفيلسوف أكسل هونيث بالأسئلة المحورية التي تدور حولها فصول الكتاب، ويورد في هذا السياق: «إن حرية الفرد الضرورية لكل ديمقراطية لا يمكنها التحقق إلا عبر اعتراف بالمسؤولية الفردية تجاه الآخرين. وبلغة أخرى: إن الحرية الفردية في الكيان الديمقراطي ممكنة فقط كحرية اجتماعية للمواطنين والمواطنات، الواعين بضعفهم» (ص 10). أما مؤلف الكتاب، رشيد بوطيب، فيقول في تمهيده: «إن فهمي للعمل الفلسفي لليفيناس باعتباره نقدًا للحرية، يتمظهر خصوصًا من خلال حوارهِ النقدي مع كل من هوسرل وهايدغر وسارتر» (ص 12). إذًا، نحن أمام عمل يقدم نفسه باعتباره مراجعة نقدية لمفهوم الحرية، ومحاولة إعادة بناء نقدية لمساهمة الفيلسوف الفرنسي ليفيناس في تفاعله الجدلي مع ثلاثة فلاسفة مؤثرين في بلورة هذا المفهوم في سياق الفلسفة الغربية.

في التمهيد الموسوم بـ «مديح الضعف»، يناقش بوطيب إحدى النقاط الفارقة في فلسفة ليفيناس، وأعني التشابك ما بين أصوله اليهودية وفلسفته الأوروبية، ومقاومة «فلسفة الهيمنة» التي طبعت الفلسفات الكلية في أوروبا. وهو لا يشدّ في هذا عن أقطاب الفلسفة اليهودية، مثل فرانس روزنتسفايغ ومارتين بوبر، وقبلهما هيرمان كوهين، ممن حاولوا تقديم قراءة «إنسانية لليهودية»؛ تلك المحاولات التي سعت لترجمة الحدوس الدينية الكبرى إلى لغة فلسفية، أو إلى لغة الحداثة. وفي هذا السياق، يقارب بوطيب بين مفهوم «التعلق» لدى كوهين، بوصفه «علاقة عقلانية ما بين الإنسان والإله»، وكمحاولة لتخليص

أما الفصل الثاني، بعنوان «من الكينونة إلى الواجب: هايدغر وهوسرل»، فيعرض لمراجعة هايدغر لتصوره الأنطولوجي، وتمايزه من «فينومينولوجية» أستاذه هوسرل. سينظر هايدغر إلى «البيدائية» باعتبارها حالة «يومية» مشتبكة بالواقع، ليست حالة متعالية، كما هي لدى هوسرل أو تجربة مجتته. وعلى الرغم من هذا الاختلاف الظاهري ما بين التصورين، فإن القراءة النقدية تكشف لنا عن تقاربات وتقاطعات واضحة في ما بينهما. ثم ينتقل بوطيب إلى معالجة نقد ليفيناس لمشروع هايدغر، المتمثل خصوصاً في كتابه الكينونة والزمان، فهو لا يتقبل «حيادية الكينونة وأولويتها تجاه الكائن». إن نقد ليفيناس للحرية ما هو إلا «نقد للأنطولوجيا كحرية» تستبد بالآخر وتُخضعه، وتتحقق فيها «الأصالة» ضد الآخرين أو ما يسميه هايدغر «دكتاتورية الهم». لكن ليفيناس يدافع «عن ذاتية هي ضيافة، مستغرقة في الآخر، وليس في كينونتها» (ص 70)، فالإتيقا «مسؤولية» تجاه الآخر، و«مسائلة» للحرية، في الوقت ذاته. و«الخير»، وليس الخير التوتاليتاري، سابق على «الكينونة». فليس العقل من يحدد علاقتي بالآخرين، هو الذي ضحى بهم، وباستمرار، باسم الغاية النهائية أو باسم «تحقق الحرية في التاريخ»، لكنه «الألم واللذة والوجود الجسدي»، فصد هيجل، لكن ضد هوسرل أيضاً وفي توافق مع أدورنو سيكتب المؤلف: «متألماً فقط يبدأ الفيلسوف». إنه «الوجه» ضد العقل، أو هو الوجه باعتباره تجلياً للأمر الإلهي، «وجهاً لوجه، بلا وساطة أو انتماء». وأمام مشكلة الموت، تظهر مرة أخرى أصالة الرؤية الليفيناسية، في مقابل نظيرتها الهايدغرية، فموت «الآخر» لا موت «الأنا الشخصي» من يعبر عن حقيقة هذا الموت، في حين سيبقى موت الآخر في نظر هايدغر

كما أنه مشروع ضد «أخلاق الحرية» التي تنتهي دوماً إلى نوع من «استغناء الذات عن الآخرين»؛ فالواجب الأخلاقي هبة الذات، وليس هبة العلاقة.

جاء الفصل الأول من الكتاب بعنوان «من الوعي إلى اللغة: الآخر في فينومينولوجية هوسرل»، ونقف هنا على قراءة نقدية معمقة لمفاهيم نظرية هوسرل «البيدائية» الأساسية مثل «علاقة الأنا بالآخر»، و«العلاقة التكوينية ما بين الوعي والواقع»، و«اكتفاء الذات الترنسندنتالية بذاتها»، وعلى وجه الخصوص في تأمله الديكارتي الخامس، بالإشارة إلى الأبعاد الميتافيزيقية لبعض تلك المفاهيم، وهو أمر تفرّد به بوطيب، وتأكيد التشابه الحاصل ما بين منهجية «الاختزال الفينومينولوجي» لدى هوسرل ومنهجية «الشك الديكارتي»، وأن الاختلاف الظاهري لا يلغي حقيقة أن التأمّلات الديكارتيّة كانت ضرورية، أو ممهدة لظهور الفينومينولوجيا الهوسرليانية. ويتشابه تحليل بوطيب النقدي لفلسفة هوسرل مع وجهات نظر فلاسفة آخرين عدة، من مثل دريدا، وألفرد شوتس، وسارتر، وبرنهارد فالدفنليز، وميرلو-بونتي، وريكور، وتسيلينسكي، وبوبر... إلخ. ويتموضع موقع ليفيناس من جهة رفضه اعتبار حضور «الآخر» في علاقته بـ «الذات» على نحو ثانوي أو «مصادفة» في فينومينولوجية هوسرل، ولينقل تلك العلاقة من المستوى الإبتيمي إلى المستوى الإتيقي، ولتصبح العلاقة بالآخر تعرف «لاتمائيًا» أو «لقاءً» Begegnung بالمعنى الذي تقدمه الفلسفة الحوارية للقاء، وتؤسس لعلاقة هي «ضيافة غير مشروطة»، «انكشاف وليس كشفًا» أو «مصدرًا للمعنى»، عبر «نداء الآخر؛ نداء، هو: وجه، ومسؤولية».

في ما يتعلق بـ «سؤال الآخر» على رؤية هوسرل التي «اختزلته في بعده الإستيمولوجي»، فإن فلسفته الخاصة تتقدم في المقابل على رؤية هايدغر «أنطولوجية - التضامنية»، حيث هي عنده علاقة «أنطولوجية - صراعية»، نلتقي من خلالها الآخر، ولا نكونه؛ هذا الآخر الذي يبقى لنا «موضوعاً» و«هماً» محسوساً، نفقد أمامه حريتنا، ونستشعر «خجلنا» من جهة كونه «نظرة» مسلّطة على الذات، ومن ثم، تسير «الحرية» عنده في الطريق التي خطّها لها هوبز، كما يرى هونيث، من جهة، كونها «حرية سلبية» لا تتحقق إلا بالصراع أو إزالة العقبات التي طريقها، وأنها، من جهة أخرى، استمرار لنهج هيغل، كما يرى المؤلف، من حيث إن إمكان تحقق الوعي مرهون بالصراع مع وعي آخر، أو بعبارة المؤلف «على جثة وعي آخر»، ليصبح الإنسان بهذا من يتزع حريته أو «يخلق طريقه بنفسه»، كما زعم سارتر في مسرحية «الذباب». وفي هذه النقطة الجوهرية تحديداً يفترق ليفيناس عن سارتر؛ إن الذات لدى ليفيناس رهينة لدى الآخر، هو «اختارني قبل أن أختاره»، وفي موضع آخر «يد تمتد إلى فم صاحبها لتنزع منه قطعة الخبز، حتى تسد رمق الآخر» (ص 104). إن اللقاء مع الآخر تواصلٌ سمته «الانفتاح»، لكنه انفتاح لا يختزل في فعل الاعتراف الذي، بحسب ليفيناس، يبقى مجرد «ديمومة في الشبيه». وهنا يقدم المؤلف نقداً مبطناً لفلسفة أستاذه آكسل هونيث. وتحت عنوان «إنساني مفرط في غيريته»، يناقش بوطيب نظرة سارتر، الساذجة كما نعتقد، إلى علاقة الإنسان بخالقه، من حيث اعتباره أن فكرة خلق الإنسان تنتزع منه إمكان وجوده وحرية، وإثبات ذاته لا يتحقق إلا بالغاء وجود خالقه، وأما الصلاة فتحيل الذات إلى مجرد موضوع، وهو يرى أن

ثانويًا بالنسبة إلى أي «معرفة بالموت». ويشير بوطيب إلى موقف ليفيناس في كتابه الغيرية والتجاوز، عبر اقتباس لغابرييل مارسيل، يقول فيه: «أُن تحب، يعني أن تقول للآخر: أنت لن تموت» (ص 85). ويتبع بوطيب هذا الاقتباس بتعليقٍ معبرٍ: «إن الحب ينكر الموت!» (ص 85).

أما الفصل الثالث، فكان بعنوان ملغز «النظرة والوجه». وفيه مقاربات نقدية ما بين سارتر وليفيناس، والعنوان ترميز لفلسفتيهما، فعلى الرغم من أنهما اتفقا على رفض «مذهب التكوين» Konstitution لدى هوسرل، فإن موافقتهما تمايزت تجاه رؤية العلاقة بالآخر، حيث رأيناها لدى ليفيناس «إتيقا» ترى في الآخر «وجهًا»، أما تحقق «الذاتية» والحرية في هذه العلاقة، على نحو ما، فمعادلة «للأنانية»، بل إن «إنسانية الإنسان لن تتحقق إلا ما وراء هذه الحرية»، في حين بقيت العلاقة بالآخر لدى سارتر ذات بعد «أنطولوجي»، والإنسان نفسه مرتهن لحرية، يرى في علاقته بالآخر «تهديدًا لحرية»، و«أنه» الوجودية مصدرية أخلاقية، وسيبقى التكوّن المعرفي الخاص للذات من عدمه مرتين لهذا الآخر الذي «تلتقيه ولا تكونه» عبر التجربة المعيشة.

كما يعرض المؤلف للنقد الخاص الذي وجهه سارتر إلى النظرية «البيداتية» لدى هيغل وهوسرل وهايدغر، ومشيرًا إلى ما قدّمه هونيث في الموضوع نفسه، ليخلص المؤلف إلى أن الاختلاف الجوهرية أو «الراديكالي»، ما بين رؤية ليفيناس وسارتر للعلاقة بالآخر، يكمن في أن سارتر يراها تتحقق عبر «الصراع»، في حين يراها ليفيناس لقاءً «إتيقيًا». وفي الوقت الذي رأى سارتر أن فلسفة الروح الهيغلية تتقدم

مشروطة، بوصفها خالقة الوعي الخاص بالعالم والمالكة له، في مقابل حياة حقيقية و«أصيلة» تصبح فيها الحرية مسخرة لخدمة الآخرين ومرتهنة بوجودهم. أما مونييه، من جهته، فينتقد علاقة الصراع التي يقيمها سارتر بـ «الآخر»، الذي يرى فيه مجرد مادة تصطدم به «الأنا»، وتحولّه إلى «موضوع». ويقدم رؤيته الخاصة من وحي تأثره بمارسيل؛ التي لا ترى في «الآخر» ذلك العدو الذي يجب اقتلعه من طريقي، أو ذاك الذي «يسلبني عالمي» وحرיתי، بل هو من يحزرنني من «أنويتي» و«فرديتي»، من دون أن يكون مجرد صدى «للأنا» أو مجرد «أنا أخرى» Alter Ego.

يعود بوطيب مرة أخرى إلى نقد ليفيناس لهايدغر، وخصوصاً لمفهوم «السكن الكلياني» لدى هايدغر، أو ما يسميه «وثنية المكان»، فيعوض «المكان» بـ «الشكر»؛ فالمكان انتماء، والشكر علاقة تتجاوز الاعتراف. يكتب: «علينا، إذا استحضرننا ليفيناس، ألا نخترل الشكر في جواب على فعل خير، بل هو من يصنع الذات، ويجعل منها ذاتاً. فالشكر تعبير عن العلاقة وعرفان بالجميل، عرفان يتجاوز الاعتراف، إنه أكثر من سكن، لأنه سكن لأجل الآخرين» (ص 113).

«الإنسان لا شيء آخر سوى حرته»، هذه الحرية التي ينبغي لها أن تتمرد، وتنفلت من عقاب كل وازع أو كل وجه، إنها حرية غير مشروطة، تتحقق كصراع مع الآخر.

يطرح ألان رونو وفلاسفة آخرون السؤال التالي: «إذا كانت الذاتية كخضوع محض، فكيف يمكنها أن تكون مسؤولة؟» (ص 114 وما بعدها). إلا أن بوطيب يوضح أن أي فلسفة تتمحور حول الذات، سوف يصعب عليها التفكير من خارجها، لأن الخضوع هنا ليس بالمعنى الذي قدمته فلسفة التنوير إلى الدين، بل بالمعنى الذي يتم فيه تجاوز الذات لذاتها أو خروجها منها، لغة وليست وعياً وحرية، أو بلغة ليفيناس: «أن أستقبل الآخر، يعني أن أسأل حرיתי» (ص 118).

في الفصل الرابع، بعنوان «هوية صعبة»، يعرج بوطيب على النقد الذي قدمه إمانويل مونييه، في سياق الفلسفة الفرنسية، لفرضية سارتر في «البيدائية»، مستنداً إلى غابرييل مارسيل وقراءته النقدية لمفهوم «الحرية الوجودية»، وكيف استفاد مونييه من هذا النقد، واستعمله في تطوير مفاهيمه ورؤيته الشخصية. يخيرنا مارسيل بين الحياة «الوجودية» التي تكون فيها حرية الذات غير